مقـــدمـــة

تمثل قضية التفكير العلمى هاجسا إنسانيا له أهميته وخطره التاريخى والمرحلى والمستقبلى، وهو ما يتجانس ويتكامل مع وجوب تجدد القراءات. وطرح المقاربات المنهجية فى مناهج البحث بوجه عام، والبحث الأدبى منها على وجه الخصوص، حيث يظل أمرا شاقا ـ بحكم طبيعته النوعية ـ حين يدخل مناطق شائكة فى حقل الدرس العلمى، بعيدا عن الانطباعية والذاتية، وتحقيقا لقدر متوازن من الموضوعية بما يقرب الدرس من أطره الحقيقية على مستوى المنهج.

ومن المؤكد ـ أيضا ـ أن ثمة دراسات متعددة الزوايا والأدوات والأفكار والمداخل والاتجاهات قد سارت فى اتجاه التأصيل والتأسيس لقضايا التفكير العلمى ومنهج البحث الأدبي- تحديدا- لما له من طبيعة خاصة، تختلف حتى عن البحث اللغوى الذى يقاربه فى كثير من الأدوات، ويفارقه ـ من جانب آخر ـ فى بعض من الغايات.

وتبقى التعددية حاكمة لكل المقاصد الجادة فى استجلاء ما يجب تأكيده من أدوات الباحث؛ حتى لا تلتبس عليه الخطى، ولا تختلط أمامه الأوراق، أو تتداخل الرؤى والأشباه، أو تغمض عليه الحقائق أمام الأوهام واللبس.

من هذا المنطق وردت فكرة طرح هذه القضايا المنهجية التى تهدف- فقط- إلى مجرد استفزاز الباحث، واستنفاره لأن يعود إلى المظان الكبرى فى المكتبة العربية، يقرأ، ويرصد، وينتقى، ويسجل، ويقتبس، وينقل، ثم يكتب، ويعرض، ويحلل، وينقد، حتى يحدد موقعه وموقع الآخرين فى ختام ما يكتبه.

ولأن البحث الأدبى رحلة شاقة يصعب الزعم فيها بقول الكلمة الأخيرة، أو الادعاء بإمكانة الاهتداء إلى حدود الخيط الفاصل فى قضاياه، كان من الطبيعى أن تتعدد مدارسه واتجاهاته التى ظهرت موزعة بين النظرية والتطبيق، ظهورها بين العربى والمترجم والأجنبى، وكذا كان ما ظهر من اجتهادات متميزة فى تحليل مناهج الدراسة على غرار دراسة الدكتور شكرى فيصل، والبحث الأدبى للمرحوم الدكتور شوقى ضيف، ومناهج البحث الأدبى للمرحوم الدكتور يوسف خليف، إلى غيرها من اجتهادات فى التطبيق على طريقة أسس كتابة بحث أو رسالة للمرحوم د. أحمد شلبى، أوغير ذلك مما طرقه رواد ذلك الاتجاه الذى يجمع بين رصد المشقة ودراسة الضرورة، بين الصعوبة والوجوب، بين الصرامة والوضوح، إلى كل ما يبنى عليها جميعا من اعتبارات الحيرة والقلق أحيانا، وحالات الارتياح والاسترخاء فى قليل من الأحيان، لا سيما إذا استشعر الباحث إمكانية وصوله إلى نتائج مرضية دون انبهار أو تهويل لما انتهى إليه بالقياس إلى نتائج من سبقوه من جيل الرواد.

هنا يصبح على الباحث أن يسعى جاهدا وراء التعددية القرائية بين النظرى والتطبيقى، وأن يجتهد فى قراءة النص واستقراء التاريخ بقدر ما يتاح له من خلال موضوعه، وبقدر ما يملكه من مقدرات وأدوات تيسر له سبل التعامل مع المادة القرائية.

ومن ثم كانت فكرة هذه المؤشرات المنهجية والقرائية التى أحسب أن الباحث الجاد يمتلك القدرة على تعميقها، وإدارة التفاصيل والحوارات حولها بما ييسر له مهمة الدخول إلى منطقة الأداء المنهجى على النحو المأمول الذى ينتظر منها اجتهادا، وإعمالا للفكر، وتعددية للقراءات بقدر ما يتاح له خلالها من حوارات ومناقشات وإضافات، ومجالات خصبة للابتكار والتجديد فى حلقة التفكير العلمى، حين ينضم إليه موكب الباحثين فى ساحة الدراسات الأدبية.

والله ــ سبحانه ــ ولى التوفيق.

عبدالله التطاوي

القاهرة ٢٠٠٥م

تمهيد خاص

حول التفكير العلمي والأداء اللغوي

من المؤكد أن خصوصية هذا التمهيد ترتهن بمستوى الرؤية الواقعية لحالة التدني التي وصل إليها أمر لغتنا العربية على ألسنة أبنائها وأقلامهم؛ مما قد يدعو إلى التساؤل الحائر حول عدة مسائل :

فهل جاء تدنى اللغة لأسباب داخلية تتعلق بكيانها ومستوى أدائها فتصبح المساءلة ذاتية ؟ أم جاء التدني لأسباب خارجية تتعلق بجملة التحديات التى أحاطت بها وبتاريخها وواقعها ؟ أم ظل الارتباط معلقا بطبيعة الخلل فى منظومة التعليم بين ضعف المنهج، ورداءة الاختيار، وضعف المعلم، وتواضع وسائل التقويم ؟ أم أن المسألة اللغوية ترتد إلى حالة التراخى الإعلامى عن صناعة خريطة لغوية صحيحة ؟ أم غير ذلك ؟

والحق أن هذه العوامل مجتمعة قد تدخل فى الحسبان، حين نتحدث بموضوعية عن واقعنا العربى، ولكن ما يأتى فى صدارتها يظل مرتهنا بمستوى التفكير ومناهجه وآلياته على ما فى مجتمعنا وغيره من مفارقات بين المثقفين والبسطاء، وعلى ما بين الفريقين من حوارات ربما يصنعها الإعلام بوسائله المتعددة بين المقروء والمسموع والمرئى، إذا ما استشعر عناصر الضعف ووضع الحلول المناسبة للعلاج.

والأمر المهم هنا هو حالة القلق التى قد تنتابنا حال الحديث عن مستوى الفكر العربي بين قدرته على التفاعل مع التراث إحياء وتجديدا وحوارا وإضافة وابتكارا وتيسيرا، وقبوله صيغ المعاصرة فهما ووعيا وإدراكا لا يتعارض مع الهوية والكيان والشخصية والنموذج القومى.. فهل يستطيع الفكر صناعة تلك المزاوجة الهادئة وضبط المعادلة الصحيحة فى الجمع بين هذه المزاوجات دون انفصام أو تناقضات ؟ وهل يستطيع الفكر العربى صناعة المواءمة بين الإقليمي والعالمى دون استشعار الدونية، أو ما يقابلها من انبهار وتماه مع الآخر ؟ وهل يبرأ من شبهة الانسياق

الأعمى وراء كل غريب عنه من باب القناعة بمجرد مغايرة المألوف، أو الاستسلام لمركب نقص قد يطرحه بعض الضعفاء. المسألة مركبة وصعبة، وربما يمكن الوصول إلى إجابات شافية لها، من خلال عدة منجزات قد تحقق بعض طموحات المنهج واللغة من خلال :

(١) إنتاج العلم والمشاركة فى صناعة ثوراته، والاقتراب من عالم المعرفة، وتجاوز مرحلة الاستيراد والاستهلاك أو القناعة بترقب إنتاج الآخر دون فهم أسراره وكومنه، ودون السعى إلى المشاركة فى نظرياته ونتائجه.

(٢) إدراك الحقيقة العلمية الكاشفة عن علاقة التفكير العلمى باللغة بشكل مطرد، فإذا كان فكرنا منهجيا قائما على أصول وثوابت ومقومات واضحة ومتغير عصرى، أمكنه أن يخلق من صور الأداء اللغوى ما يوقف فرص الاجتراء على اللغة إلى حد الظلم البين لها، أو ربما محاولة نسف تاريخها الحضارى والإبداعى جملة وتفصيلا، وبما يعطل صور الاهتراء اللغوى، التى تصيب أبناءها فى مقتل قد ينتهي بهم إلى قبول الضياع والرضا بالانهزامية.

(٣) احترام المكون الثقافى، ودعم المشروع الناهض للأمة فى اعتزازها بثوابتها، مع تعظيم دورها العلمى من خلال استدعاء الموروث من قبيل صناعة ثقافة الثقة بالذات، إلى استيعاب الجديد وتأصيله فى ظل المزاوجة الأصيلة بينه وبين موروث الأمة.

(٤) أن ثمة حراكا لغويا رائعا يمكن أن يحدث متواكبا مع حركة التفكير العلمي انطلاقا من تنمية المفردات، وصياغة المصطلح، إلى القدرة على معايشة المرحلة بكل مستوياتها اللغوية التى يجب على الأجيال الإلمام بها من لغتنا الفصحى فى التراث، إلى فصحى المثقفين، إلى عاميتهم الراقية التى تلتقى جذورها فى أحوال كثيرة من الفصحى، إلى عامية البسطاء بما ينتابها أيضا من مستويات التدني أحيانا إلى حدود السوقية والترخص.

(٥) أن يظل الدور الإعلامى قادرا على إضافة كثير إلى مناهج الفكر والأداء اللغوى، إذا ما حسنت خريطة الأداء فى خدمة المنهج وتيارات الفكر المعاصر، إلى جانب تداعيات الأداء اللغوى بشكل متميز.

من هنا يلتقى التفكير العلمى بالأداء اللغوى؛ مما يجعل الاتهامات للعقل العربى وإنتاجه أقرب إلى الصحة من الاتهامات للغته التى تظل قادرة على الوفاء بكل متطلباته؛ بشرط المشاركة فى حركة العلم ومعترك المعرفة الذى يتسابق حوله العالم المتقدم، وتتسع بسببه الفجوة بين صناع المعرفة وبين مستورديها ومستهلكيها؛ الأمر الذى يوجب مساءلة الذات عن حجم المشاركة فى منظومة التقدم.

obeikandl.com